الإنسانية

في

أن تقتل طائرًا بريئًا

محمد أحمد شحاته

الإنسانية في أن تقتل طائرًا بريئًا

قرأت رواية "أن تقتل طائرًا بريئًا" لهاربر لي، وبعد انتهائي من آخر سطر بالرواية فكرت طويلاً في الزاوية التي يمكن أن أنطلق منها في كتابة مقال عن تلك الرواية.

وبعد بعض التأمل وجدت أنه من غير المناسب أن أكتب مقالاً ناقداً للرواية وذلك لسببين؛ الأول أن النقد الأدبي ليس تخصصي. أما الثاني فهو أن تلك الرواية قد لاقت من المديح والاستحسان ما يجعل أي محاولة أخرى لمدحها لا طائل من ورائها، كما يجعل أي محاولة لتصيد العيوب درباً من دروب العبث وليس المقصود أن الرواية كاملة فهي عملٌ بشريٌ أولاً وأخيراً والنقص هو من سمات البشر ولكن المقصود أن الرواية يغلب عليها الجانب الجيد وإن وجود بعض العيوب لا يقدح في جودة العمل.

لذا آثرت تناول جانب من الجوانب التي تناولتها الرواية؛ فلقد أثارت الكاتبة العديد من الجوانب أذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر فيما يلي:

فيمكننا أن نرى الجوانب التربوية في معاملة أتيكوس لأولاده، كما عرضت الكاتبة للجانب الاجتماعي المتعلق بالحياة في بلدة مايكوم التي لم تغادر أحداث الرواية حدودها، وهناك الجانب الثقافي المتمثل في اهتمامات أهل البلدة من رجال ونساء، وكذلك جانب التعليم المؤسسي وعلى الرغم من قلة الأحداث التي دارت داخل المدرسة إلا أن هاربر لي استطاعت أن تظهر لنا سمات هذا النظام على لسان سكاوت.

ولكن بحق يعد أكثر الجوانب تأثيراً في هذه الرواية هو الجانب الإنساني الذي يسترعى انتباه القارئ بطريقة أو بأخرى، وأقصد بالإنسانية هنا مجموعة **حقوق الإنسان**، تلك الحقوق التي بإهدارها تنتقص من قدر الإنسان وتشعره بالإهانة والإذلال بل والانتقاص من آدميته ذاتها، وعند النظر إلى من يسلب تلك الحقوق ويهدرها نجد أن الإنسان بفطرته يراه ظالماً، متجبرًا، أقرب إلى الوحوش منه إلى البشر.

وفي ختام هذه المقدمة أود أن أسجل إعجابي بالرواية واستمتاعي بقراءتها، كما أود أن أشكر المترجمة على المجهود الرائع الذي بذلته لإخراج النسخة العربية بهذا الشكل الرائع.

والآن سوف أتتبع فيما يلي الحقوق والمبادئ الأساسية المتعلقة بالإنسانية على مدار أحداث الرواية، وقد يتبادر إلى الذهن أن الرواية لا تحوي إلا الحقوق المتعلقة بالمحاكمة، وهذا التصور غير دقيق لأن الكاتبة تعرضت لحقوق أخرى سواء صراحة أو ضمناً ولذلك سأختم مقالي عن تلك الحقوق المتعلقة بمرحلة المحاكة وسأبدأ بالحقوق الأخرى.

أول هذه الحقوق هو **الحق في الحرية الشخصية** ولا يخفى على الأحد أهمية هذا الحق والآثار الضارة التي تترتب على انتقاصه، ولقد ظهر ذلك الحق واضحاً في نصيحة أتيكوس لأبنائه بألا يزعجوا بو (آرثر) رادلي وكان ذلك بعد محاولتهم

لإخراجه من منزله. ويظهر ذلك أيضاً في حديث الآنسة مودي مع سكاوت عندما قالت:" إن آرثر رادلي لا يغادر المنزل هذا كل ما في الأمر" ثم سألتها "أما كنت تبقين في البيت إذا كنت لا ترغبين في الخروج؟"، وهناك موقف السيد رايموند الذي كان يتصرف بالطريقة التي تروقه هو على الرغم من أنه كان يخدع الجميع، فالكل كان يحسبه سكيراً يشرب الخمر في وضح النهار ولكن اتضح بعد ذلك أنه كان يضع زجاجة كولا في ذلك الكيس الورقي البني اللون، وذلك عندما أعطى ديل رشفة منه لمداواة ألم بطنه.

ولقد ظهر **الحق في حرية العقيدة** على استحياء في الحوار بين الآنسة مودي وسكاوت وذلك عندما تحدثا عن "غاسلي الأقدام" وكان واضحاً أن الآنسة مودي غير مقتنعة ببعض معتقداتهم خاصة المتعلقة بالمرأة، ولكنها لم تصرح بأنهم على خطأ أو مهاجمتهم بل اكتفت بشرح وجهة نظرها المخالفة لهم لسكاوت دون أن توجهها لاعتناق فكر أيٍ من الفريقين.

كما ظهر جلياً تأصيل **لحرية التعبير والرأي** وذلك في الحوار الذي دار بين أتيكوس وابنته الصغيرة سكاوت عندما حدثته عن آراء أهل البلدة في توليه الدفاع عن زنجي، فلقد قالت له أتيكوس أعتقد إنك على خطأ. فرد قائلاً: "وكيف ذلك؟" فقالت له: "يبدو أن معظم الناس يعتقدون أنهم على صواب وأنك على خطأ" فقال أتيكوس: "إن لهم الحق كل الحق في أن يظنوا ذلك، بل أن آراءهم جديرة بأن تحترم، ولكن قبل أن أستطيع التوافق مع الناس، عليّ أن أتمكن من التوافق مع نفسي، فالشيء الوحيد الذي لا يلتزم برأي الأغلبية هو ضمير الإنسان".

ومن هذه العبارة الأخيرة يتضح لنا مدى احترام أتيكوس للحق في التعبير بل ويرى أن آراء الناس فيه هو شخصياً جديرة بالاحترام حتى ولو كانت تخطئه. بل ويضع أتيكوس ضابطاً لتلك الحرية ألا وهو ضمير الإنسان. كما ظهر ذلك أيضاً في حوار أتيكوس مع ابنه جيم حول السيدة ديبوز بعد وفاتها عندما قال له: "أجل، كانت سيدة عظيمة ، لها وجهات نظرها الخاصة، وهي تختلف كثيراً عن وجهات نظري". وأيضاً هناك الحوار الذي دار بين أتيكوس وابنته سكاوت عندما نصحها بأن تضع نفسها مكان الشخص الآخر حتى تفهم تصرفاته جيداً فهذا هو **الاعتراف بالآخر**.

ولقد سردت الكاتبة بعد ذلك ملمح من حياة عصابة "كو كلاكس" وهي العصابة التي انتشرت في الجنوب الأمريكي وكانت تحاكم الزنوج بمحاكمات صورية غالباً ما تنتهي بإعدامهم شنقاً على فروع الأشجار.

وهذه العصابة تمثل إرهاباً عنصرياً وإرهاباً فكرياً بل تمثل الخروج على الشرعية فكيف لها أن تنصب نفسها قاضياً موازياً لقضاء الدولة بل وتصدر أحكاماً وتنفذها، فهذه العصابة تجاوزت المدى فعبرت من الجانب المعنوي أي جانب الأفكار إلى الجانب المادي أي جانب الأفعال لتقوم بأفعالها المشينة.

وقبل أن أبدأ بعرض حقوق الإنسان المتعلقة بمرحلة المحاكمة نعرض أولاً لأهم مبدأ من مبادئ حقوق الإنسان، هذا الحق الذي جاهد الإنسان كثيراً لإقراره. هذا الحق الذي بفقدانه تساوت طائفة من البشر بالأشياء والجمادات وفقدوا إنسانيتهم؛ هذا الحق هو **الحق في المساواة**.

ولقد أثارته الكاتبة في أكثر من مناسبة، كما أنه يمثل موضع الألم الذي يصرخ ويئن طوال أحداث الرواية. فعلى الرغم من الاعتراف بحرية التعبير والاعتراف بالآخر إلا أن ذلك كان في بعض المجالات فقط، وكان يُضرب بهذه المبادئ عرض الحائط إذا تعلق الأمر بلون البشرة؛ فلقد سادت نظرة –في زمن الرواية– وبخاصة في الجنوب الأمريكي وهي أن الشخص الأسود البشرة أو الملون هو في مرتبة العبد أو الأشياء، فهو أقل مرتبة من الشخص الأبيض. وهذه النظرة كانت سائدة بشكل كبير بل وكانت متأصلة في النفوس وأصبحت كقاعدة عرفية يجب الالتزام بها، ولم يكن يقاوم هذه النظرة سوى قلة من الأشخاص ولاقوا الكثير من الاستهجان من المجتمع إذا كانوا من البيض، ولاقوا أشد العذاب إذا كانوا من السود أو الملونين. وفي الرواية نجد أن هناك فئة كانت تحاول مقاومة تلك النظرة وذلك مثل أتيكوس والقاضي تايلور الذي اختار أتيكوس للدفاع عن توم روبنسون؛ ذلك الأسود الذي تم تلفيق تهمة الاغتصاب له.

وتظهر الازدواجية في شخصية الأمريكيين من أهل الجنوب – في تلك الفترة – على لسان المدرسة الآنسة جيتس وموقفها الرافض تماماً لسياسة هتلر وحكومته لأنهم متحيزون على حد قولها وقالت: "يقع الاضطهاد على أيدي من هم متحيزون" وقصرت كلامها بعد ذلك على سوء معاملة هتلر لليهود، ثم نجد بعد ذلك سكاوت تحكي لوالدها أتيكوس موقفاً آخر عن معلمتها الآنسة جيتس وذلك لدى خروجها من قاعة لمحكمة في قضية توم روبنسون فلقد تبادلت أطراف الحديث مع الآنسة ستيفاني كراوفورد قائلة: "إن الوقت قد حان وأصبح ضرورياً أن يلقنهم أحد درساً، فقد صاروا يحاولون تخطي حدودهم وإن الخطوة التالية التي سيفكرون فيها ستكون الزواج منا". وعلقت سكاوت على هذا المعيار المزدوج قائلة: "كيف يمكنك أن تكره هتلر إلى هذا الحد ثم تتحول لتمارس أفعالاً بشعة تجاه أشخاص موجودين في موطنك على الأخص؟"

كذلك تظهر تلك الشخصية المزدوجة في شخصية السيدة جريس مريوذر وذلك في حديثها عن قبيلة "المرونا" البائسة التي تعيش في إفريقيا ولا يهتم بها سوى السيد ج جريمز إيفرت. والمثير للسخرية إنها تدعو أهل بلدة مايكوم للمشاركة في رعاية تلك القبيلة المكونة من أشخاص سود والموجودة بقارة إفريقيا أي قبيلة يفصل بينهم وبينها المحيط الأطلنطي، ومع هذا لم تكلف نفسها عناء الدعوة لرعاية أبناء بلدها – مايكوم – من السود والملونين.

ومن المثير للسخرية في هذا الإطار هو ما الذي كانت تتوقعه السيدة مريوذر بعد تحرير تلك القبيلة من الفقر والجهل والوثنية؟! فهل سيسافرون إلى العالم الجديد ليصيروا عبيداً أو على الأقل ليضطهدوا بسبب لون بشرتهم السمراء التي لم يختاروها؟؟!!!

فهذا يوضح مدى التناقض والمعيار المزدوج والكيل بمكيالين الذي قد يلقي بظلاله على عصرنا الحالي في التعاطي مع بعض القضايا والأمور. وبالطبع فإن هذا الموقف مرفوض جملةً وتفصيلاً لتنافيه مع أبسط قواعد العدالة والإنصاف والفطرة الإنسانية التي خلقنا عليها.

ولقد ظهر مدى سوء الإخلال بمبدأ المساواة في أكثر من موضع في الرواية فعلى سبيل المثال نجد ذلك في حديث جيم وسكاوت عن الملونين وذلك أمام دار المحكمة قبل دخولهم لحضور المحاكمة، وكيف أن الملونين لا يلاقون أي معاملة لائقة لا

من البيض ولا من السود وذلك لأنهم وقعوا في منطقة وسطى بين الاثنين فنصفهم أبيض ونصفهم أسود فأصبحت فئة مضطهدة من الفئتين الأخريين.

كذلك ظهر مدى الإخلال بمبدأ المساواة في حوار السيد رايموند مع الطفلين ديل وسكاوت وذلك عندما علل بكاء ديل قائلاً: "يبكي بسبب العذاب الذي يسلطه بعض الناس على البعض الآخر دون تفكير . يبكي بسبب العذاب الذي يتزله البيض بالملونين دون أن يتوقفوا ليفكروا حتى في أن هؤلاء بشر أيضاً".

وهناك موقف آخر في الرواية تناول هذا الجانب وهو الحوار الذي دار بين جيم وسكاوت عن الخلفية الاجتماعية ومعناها، وهل تعني العائلة العريقة؟ منتهيًا إلى قول جيم: "*ولكن إن كان هناك نوع واحد من الناس فلماذا لا يتفاهمون معًا؟! وإذا كانوا متشابهين فلماذا ينحرفون عن المسار ليحتقر الواحد الآخر؟!* ".

وكذلك أشار إلى هذا الحق أتيكوس في مرافعته عندما استشهد بعبارة توماس جفرسون "إن كل الناس قد خلقوا متساويين" وتوضيحه لمعنى هذه المساواة.

وبهذا نكون قد انتهينا من العرض لحقوق الإنسان العامة التي أثيرت في الرواية وننتقل فيما يلي للعرض لحقوق الإنسان المتعلقة بمرحلة المحاكمة وتوقيع العقاب.

وأول هذه الحقوق هو **الحق في محاكمة عادلة** فإن الشخص إذا تم اتهامه فيجب أن يحاكم محاكمة عادلة قبل توقيع أي عقوبة عليه.

ولقد ظهر هذا المبدأ جلياً في مرافعة أتيكوس في الفصل العشرين من الرواية وخاصة عندما ترافع قائلاً: "وهكذا، فإن زنجياً هادئ الطباع، محترماً ومتواضعاً حدث أن تهور تهوراً كاملاً فأحس بالشفقة على امرأة بيضاء، وها هو يضطر الآن إلى أن يضع شهادته مقابل شخصين أبيضين. لا أحتاج إلى تذكيركم بمظهرهما وسلوكهما على منصة الشهادة".

وهنا كان أتيكوس يخاطب هيئة المحلفين موضحاً أنه من الظلم ألا تأخذ بشهادة توم روبنسون المنطقية والمتناسقة لأنه أسود البشرة فقط، ولأن شاهدين أبيضين شهدا ضده بشهادات متضاربة تفتقر إلى الجدية وغير منطقية أو مترابطة.

وكذلك عندما قرر أتيكوس في مرافعته أن الكذب وقلة الأخلاق والانحراف هي سلوكيات ليست قاصرة على السود فهي سلوكيات تنطبق على الجنس البشري بأكمله.

ويوضح أتيكوس أن المحكمة هي الحامي الأول للمساواة وهي التي ترسي العدالة فقال: "ولكن هناك طريقة واحدة في هذه البلد – يخلق فيها الناس جميعاً متساويين – هناك مؤسسة إنسانية واحدة تجعل الفقير يتساوى مع فرد من عائلة روكفلر، والأحمق يتساوى مع عميد كلية، هذه المؤسسة أيها السادة هي المحكمة". وهذا بالطبع ما ينبغي أن تكون عليه أي محكمة

عادلة فهي لا تتأثر بغنى الشخص أو فقره، علمه أو جهله بل المهم هو تطبيق القانون على الواقعة بالعدل دون اعتبار لأي مؤثرا ت أو عوامل أخرى.

ولقد تكلم أتيكوس بعدها عن نظام المحلفين وأوضح وجهة نظره فيه وقال أنه ميزان المحكمة فبقدر ما يكون قويماً تكون استقامة المحكمة.

وهنا يجب أن ننوه عن أن المحاكمة العادلة تُؤَصِّل في النفوس الشعور بالعدل والإنصاف، ولقد قام أهل البلدة من الملونون بإهداء أتيكوس الطعام والشراب وذلك لمجرد شعورهم بأنه قام بأداء واجبه على أكمل وجه وأنه حاول قدر استطاعته إظهار العدالة وبراءة توم روبنسون من التهمة الملفقة إليه.

ومما يدلل على أن الحق في المحاكمة العادلة هو حق فطري جبل الإنسان عليه موقف سكاوت من عمها جاك وذلك عندما تشاجرت مع ابن عمها فرانسيس وسبته لنعته والدها "محب الزنوج" فعاقبها عمها على إطلاقها السباب. وبعد أن هدأ الموقف حاول العم جاك مصالحة سكاوت التي قالت له أن ليس عادلاً وذلك لأنه عاقبها مباشرة بعد سماع طرف واحد فقط و لم يعطها الفرصة للدفاع عن نفسها أو أن توضح أسباب الشجار الذي نشب بينها وبين فرانسيس.

وهذا الموقف ذاته يدلل على الحق التالي ألا وهو **الحق في الدفاع** ومقتضاه أنه يجب إتاحة الفرصة للمتهم للدفاع عن نفسه والرد على التهم الموجهة إليه، ويترتب على هذا الحق حق آخر وهو **أن تكفل الدولة توفير محام للمتهم إذا لم يستطع تحمل أجر واحد من المحامين** وهذا ما حدث عندما قام القاضي تايلور بتعيين أتيكوس للدفاع عن توم روبنسون.

كما يظهر في الرواية مبدأ هام جدًا يترتب على الحقين السابقين ألا وهو **مبدأ علانية الجلسات**، أي أنه يجب أن تكون جلسات المحاكمة متاح للجمهور حضورها وهذا هو المقصود بمبدأ العلانية وهو إتاحة الفرصة أمام الجمهور لحضور الجلسات، وظهر ذلك المبدأ في الرواية في الحوار بين جيم والآنسة مودي وذلك عندما قال جيم "إنهم مضطرون إلى محاكمته علناً، لا تجوز محاكمته بغير هذه الطريقة".

وهناك قاعدة قانونية تظهر في جانب آخر من الرواية مقتضاها أن **الشك يفسر لصالح المتهم** ومقتضى هذا المبدأ أنه عند وجود أي غموض أو شك في أي دليل من أدلة الاتهام يجب أن يفسر القاضي هذا الشك لصالح المتهم ولا يعاقبه بناء على أدلة مشكوك فيها، وهناك المقولة المشهورة التي تقول فليفلت مجرم من العقوبة خيرٌ من أن يعاقب برئ. وظهر هذا المبدأ في حوار جيم مع والده أتيكوس عندما قال جيم أنه يشعر بخطأ ما في الحكم على توم روبنسون وأرجع ذلك إلى أنه ربما يجب ألا يكون الاغتصاب جريمة يعاقب عليها القانون.

ولكن أتيكوس أوضح له أن مصدر الخطأ هو أن الإدانة قد تمت على أساس من أدلة ظرفية وحدها وهذا خطأ كبير، وقال: "ما لم يوجد شاهد العيان، فهناك دائماً شك ما، وأحياناً قدر يسير من الشك. القانون يسميه (شك معقول)، ولكني أعتقد أن المتهم له الحق كل الحق في الاستفادة من هذا الشك المعقول. إذ أن احتمال البراءة قائم وإن خالف ما هو متوقع.

وآخر مبدأ سنعرض له هو **مبدأ شخصية العقوبة** ومقتضاه أن العقاب يجب أن يوقع على نفس الشخص الذي ارتكب الجريمة ولا يجوز أن يوقع على أحد آخر نيابة عنه أو مكانه؛ فلا يجوز مثلاً محاكمة الابن على جريمة ارتكبها الأب أو العكس.

ولقد مر هذا المبدأ بالعديد من التطورات حتى وصل إلى الصورة الحالية له في القانون الآن.

ولقد أوردت هاربر لي في روايتها المرحلة الأولى من هذا المبدأ وكان ذلك في حوار جيم مع سكاوت عن السيد يوويل، وهو أنهم لا يريدون محاكمته لإنفاقه أموال المعونة على الويسكي؛ وذلك حتى لا يتضور أطفاله جوعاً، وحتى لا يحرموا أطفاله من الصيد الذي يأتي به أبوهم لهم.

ولكن في ظل التطور القانوني الحالي هذا يعد من آثار العقوبة ولا علاقة له بمبدأ شخصية العقوبة؛ فكون أن الأسرة دخلها سيتأثر أو سيقل بعقاب رب الأسرة فإن هذا ليس مبرراً لأن يفلت رب الأسرة بجريمته ولكن يعاقب عليها. ومقتضى مبدأ شخصية العقوبة هنا هو ألا يعاقب أحد أقاربه بدلاً منه أو مكانه حتى ولو كان ذلك باتفاق أو بتراضي بينهما.

وبهذا نكون قد عرضنا للإنسانية في رواية أن تقتل طائراً بريئاً؛ وذلك من خلال تتبع حقوق الإنسان والمبادئ العامة المتعلقة بها والمترتبة عليها في أحداث الرواية، ولقد رأينا أن هناك عدد كبير من هذه المبادئ والحقوق ورد ذكرها بطرق مختلفة في الرواية سواء بوجودها أو نقد عدم وجودها. وفي الختام نأمل أن يعمل الإنسان جاهداً للحفاظ على حقوقه وعلى إنسانيته في المقام الأول.